تدبر سورة الحديد

د. رقيــة العلوانـــــي

تدبر سورة الحديد

بسم اللّه الرحمن الرحيــم الحمد للّه حمد الشاكرين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

بين يدي السورة

حين تجفّ المآقي فلا تجود بدمعة في جوف الليل من خشية اللّه، وحــين يقسو القلــب فينافس في قسوته وصلابتــه الحجر والحديد، حــين تأخذنا الدنيا ببهرجتهــا الفارغة بعيداً عــن مضمار السباق إلى الآخرة فنتخلّف عن السير حتى نغدو في آخر الرَكْب، تأتي هذه السورة العظيمة التي بين أيدينا لتنتشلنا من هذه الغفلة والبُعد عن اللّه عز وجل، إنها سورة الحديد.

تلك الســورة التي حوت في آياتها بعض ما نزل في المدينة وبعض مــا نزل في مكة. محور الســورة الأساس الذي تدور حوله كل الآيات من أولها إلى آخرها، معالجة مظاهر القسوة في القلوب.

ســورة الحديد هي دعــوة من اللّه عز وجل تحبُّبــاً لعباده للعودة إليــه، تحبُّباً من خالق كريم غني حميــد ولكنه رؤوف بعباده رحيم، يفتح أبواب التوبة والرحمة لعباده، يدعوهم، يتحبَّب إليهم أنْ هلمُّوا إليّ!.

مهما ابتعدت بكم الدروب ومهمـا اختلفت الأحوال ومهما قست القلـوب، تبقى أبـواب التوبة - التي تفتح سـورة الحديد - مشرعة أمامنا جميعاً للعودة إلى الله عز وجل ذلاً وانكساراً بين يديه،خشوعاً وتسبيحاً، إذعانـاً لأمره ليخرج المؤمن من نفسه وماله لله عزّ وجل وحده لا شريك له.

ليخرج الإنسان من كل ما يمتلك تضحية وبذلاً وعطاءً لربٍّ كريم يرجـو أن يجد عنـده سبحانه وتعـالى كل ما ترك من متـاع الدنيا والآخرة.

مقاصد السورة ومحاورها

هــذه السورة العظيمة تعيد القلوب لخالقهـا حين تتغلغل بآياتها في داخـل القلب لتسكن فيه، فيُضاء القلب و يسير الإنسان على نور وبصـيرة في الحياة، في الواقع الذي يعيش، في المجتمع، في الأسرة، في كل مـا حولـه ليصبح هـذا الإنسان المتحرِّك بأمـر الله سبحانه وتعـالى تسبيحـاً وإذعانـاً وخشوعاً لأمـره وتنفيذاً لمـا جاء في هذه السورة مصدر نور وإشعاع لكل من حوله.

كل مـن يقترب من هذا الإنسان المؤمـن، يصيبه من ذاك النور شــيء، يصيبه من ذلك الغيث شــيء، يصيبه من ذلك الخير الذي يفيض والعطاء الذي يشعّ من قلبه وروحه بشيء.

هـذه السورة العظيمة تواصل بآياتهـا لتعود بالإنسان إلى خالقه من جديد فيبقى ذلك النور متواصلاً معه في مسيرته في الحياة ولا يفارقـه أبداً ولا حتـى بعد الممات ولا حتـى في عَرَصات يوم القيامة ولا حتى في مقام الصراط، تلك المواقف العظيمة المهولة التي تأخذ بالألباب وبالعقـول. يبقى النور مصاحباً لذلـك المؤمن ليسعى بين يديـه ويسعى من خلفه وعن أيمانهم وعـن شمائلهم حتى يجعل كل من حوله يطمع في أن يصل إليه شيء من ذلك النور.

سورة الحديد العظيمة تعالج مرض قسوة القلب، وتصلب الإيمان في شرايينه، الأمـر الذي يؤدي إلى تكلُّس معاني الخشوع والخضوع والإذعـان للّه عز وجل في شرايينه بأساليب متعددة متنوعة، لتؤكد علـى أن مرض القسوة، الذي يبدأ بغفلة بسيطة تزداد شيئاً فشيئاً، حتـى تسدّ على القلب منافذ الإدراك فيـه، فتتركه صلداً صلباً، قد يسوق صاحبه في داء النفاق الذي أدّى بالخروج إلى أمم سابقة من أهل الكتاب إلى الوقوع في الفسق والخروج عن أوامر اللّه عز وجل.

السـورة تقدم خطوات لكيفية عودة القلـب إلى خالقه سبحانه، عودتـه من القسوة إلى الخشوع واللين، من البخل والشُحّ إلى البذل والعطـاء، مـن الإختيـال والفخـر الواهـم إلى التواضـع والسكون والتضـرّع والإنكسار بين يدي خالقه سبحانـه، من الركود والركون

والسلبيــة والعُزلــة عن النـاســ إلى الواقع ليعالــج ويصحِّح ويصبح مصدر نور وإشعاع لكل من حوله.

ليُحـقّ الحـقّ في الواقــع ويُبطِل الباطـل ويُحقِّق دعــوة الأنبياء والرسـل نُصــرةً لمبادئهم وقِيَمهم في كل من حولــه وفي كل ما حوله ليصبح هذا الإنسان المؤمن وذاك القلب في معيّة اللّه عز وجل، تلك المعيّة الخاصة.

وأول خطوة على ذلك الطريق ليعود القلب من جديد إلى خالقه، يقــول المرء «سبحان اللّه» باللســان فحسب وإن كان ذلك جزء منها ولكنه تسبيح يجتذب القلب من نواحي الغفلة التي قد علته إلى عالم جديد، يصبح ذلك القلب الغافل مُسَبِّحاً مع كل من حوله.

ثــم تأتي الآيات بأسماء وصفات عظيمة من أسماء اللّه سبحانه وتعالى عزيز قوي لا يُغلَب، حكيم في أمره ومشيئه (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهنا يبدأ القلب باستشعار معنى التسبيح يعود من مرحلة الغفلة عن معانيه إلى التوقف عندها.

ولكن لماذا يغفل القلب عن ذكر اللّه؟!.

تأتــي الإجابــات في السورة من خــلال تثبيت المعــاني الإيجابية التي تعالــج الغفلة وأولها استحضار عظمة اللّه سبحانه وسعة ملكه

وقدرته: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فكل ما يريده الإنسان، يجده عنـد خالقه سبحانه. (يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ(٤)) قدرة مطلقة. (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَـى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) كل شيء، علم مُطلق، علم دقيق. (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا).

ثم تأتي نهاية الآية بقوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

ثـم تعود من جديد: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)، (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

هذه الآيات تكرس في القلب الغافل أن الله سبحانه محيط بكل شيء، علمه بتصرفاتنـا، بأفعالنا، بغفلتنا، بعودتنا، بكل شيء علم دقيق يسع كل شيء. فالقلب حين يغفل مجرد غفلة عن خالقه، حتى وأن تحرك اللسان، الله يعلم ذلك ويحيط به.

ولذلـك جاءت التأكيـدات في أكثر من موضع: (وهـو بكل شيء عليم) (بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ). آيات توقظ في القلب الشعـور بمراقبة الله عز وجل وعلمه بكل شيء. ثم تأتي تلك

الآيــة العظيمة: ﴿وَهُــوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَــا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ومعية اللّه عز وجل على نوعين:

المعية الأولى معية عامــة فهو سبحانه مع عباده بما يليق بجلاله بعلمه وبإحاطته واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ومشاعرهم وخلجات نفوسهــم وخواطرهم ومــا يحدثون به أنفسهم ليــلاً أو نهاراً في كل شيء هذه هي المعية العامة.

المعيــة الثانيــة هــي معية خاصــة معيّــة اللّه مع عبــاده المؤمنين المخلصــين توفيقــاً وتأييداً ونصرة لهم، كما جــاء على لسان النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم أن قال لصاحبه: "لا تحزن إن اللّه معنا" معيــة خاصــة تأييد حفظ توفيــق نصر فتح من اللّه عــز وجل معية خاصــة لا ينالهــا إلا المؤمــن، وهــي بعيدة عــن منال القلــب الغافل القاسي الذي اختط" طريقاً ودرباً له بعيداً عن خالقه سبحانه.

فهو يُحرَم من هذه المعية ولا يمكن أن ترجع وتعود المعية الخاصة لهــذا العبــد إلا إذا إستشعر واستحضر وعاشــ المعيّة العامة الأولى النابعــة مــن استحضــار الإنســان لمعــاني مراقبــة اللّه سبحانه له وإطلاعه على أفعاله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هــذه حالة اليقظــة التي تبدأ بهــا سورة الحديــد توقظ القلوب وتعيدهــا من جديد إلى خالقها من خــلال تسبيح الإنسان لخالقه،

تسبيحا يعيد القلب البعيد عن الله عزّ وجل إلى خالقه، مستحضرا المعاني والأسماء العظيمة الحسنى التي جاء ذكرها في بدايات السورة (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا يدين قلبي باستشعار بملك أحد من الناس مهما بلغ ملكه ومهما بلغ جاهه ومهما بلغت قوته أنه يملك من الأمر شيئاً، لا يملك ولا شيء الملك الحق لله الواحد الأحد.

ثم جاءت (يُحْيِي وَيُمِيتُ) هل البشر مهما بلغوا من القوة يملكون القدرة على الإحياء أو الإماتة!

هل يملكون نفساً من أنفاس الحياة حتى يجري الإنسان ورائهم بعيداً عن الخالق سبحانه وتعالى؟!

التسبيح لم يعد مجرد كلمات باللسان، بل عبادة قلبية من أعظم أنواع العبادات، حين يسبِّح القلب قبل اللسان ليستحضر معاني هذه الأسماء العظيمة.

الآيات الست الأولى جاءت لتوقظ القلب ليسبّح التسبيح الحقيقي فيبدأ بالعودة شيئاً فشيئاً للحياة الحقيقية، حياة الإيمان: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) إيمان حقيقي، تصدّقه الجوارح في واقع الحياة، السلوك الذي يتعامل به مع الآخرين، الأخلاق، القيم، المبادئ، المثل التي تكون وراء حركة الإنسان في واقع الحياة.

ثـم تأتي الآية: (وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُـم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) فالإنفاق تصديـق لمعاني الإيمان بـالله الذي له ملك السمـاوات والأرض في الواقـع. الإيمان يدفع الإنسان للعطاء والبـذل بكل أشكاله، فكل ما يمتلكـه الإنسان من مواهب، جوارح... مجرد عارية لتحقيق مهمته في الخلافة على هذه الأرض: (إني جاعل في الأرض خليفة).

مـا الذي يدفع بالإنسان بعيدا عـن الإيمان بالله ورسوله وتنفيذ أوامرهما التي جاءت في هذه السورة العظيمة؟!.

وهنا يحتاج الإنسان إلى مواجهة نفسه بصدق باحثا عن أسباب ابتعاده عن الله عز وجل، والنظر في عظيم خسارته والآية تضعه في عمق المواجهة: (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)؟!.

ثـم يأتي العلاج ليأخذ بقلب الإنسان ويده إلى حيث النور والحق والهداية: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) فالعودة إلى كتاب الله القرآن من أعظم أسباب معالجة قسوة القلب وغفلته وبُعده عن الله سبحانه.

طريـق عودة الإنسان إلى خالقه يقتضـي عودته إلى القرآن وأن يجعـل له حظا وعلاقـة وطيدة مع كتاب الله عز وجـل، فهو الكفيل بإنـارة الدرب وإخراجه من ظلمات الهـوى والضلال إلى نور الحق والهـدى: (هُوَ الَّـذِي يُنَزِّلُ عَلَـى عَبْدِهِ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

فالإنسان قد يمشي في طريق والطريق مظلم ويبحث عن بصيص نور فلا يجد، على الرغم من كل الأنوار التي صنعها الإنسان بحكم التقدم الحضاري الراهن.

ويبقى التساؤل هل يمكن لتلك الأنوار المصطنعة أن تضيء الظلمة التي توجد في قلب الإنسان حين يبتعد عن خالقه؟! تلك الظلمة التي تُلبس على الإنسان قرارته فلا يتمكن من التمييز بين الحق والباطل.

تبين سورة الحديد أن القرآن العظيم من أعظم وأهم مصادر النور في الحياة كما في الآخرة، فلا نور على وجه الحقيقة دون العودة الحقيقية إلى القرآن.

من هنا كان إنزال القرآن الكريم وتكفل الله سبحانه بحفظه من واسع رحمته سبحانه ورأفته بالإنسان، ليأخذ به إلى أسباب الهداية والنور متى ما أقبل الإنسان عليه بقلبه وروحه المتعطشة إلى النور.

ثم تعود الآيات من جديد لتواجه الإنسان بسلبياته وتثاقله عن عمل الخير والإنفاق والبذل في سبيل الله من خلال توجيه السؤال

إلى ذاته: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فالشح والبخل والتمسك العاطفي بالمال من أعظم مسببات قسوة القلوب وبعدها عن خالقها.

كما أن الآيات تواجه الإنسان بحقيقة تتعلق بإيمانه بالله، فعلى قدر إيمانك بأن كل ما تمتلكه من الله سبحانه، يكون بذلك وعطاؤك في سبيله: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) كل شيء بيد الله وكل شيء من الله وسيؤول إلى الله سبحانه وتعالى. إنها حقيقة قد تغيب عن الكثيرين خاصة في ظل العصر الذي نعيش وما اتسم به من مادية مفرطة وتكالب على أسباب المعيشة على حساب الاهتمام بأسباب حياة الروح.

فالمال والمواهب وكل ما وضعه الله سبحانه تحت تصرف الإنسان ودائع ستُستردّ في يوم من الأيام. لكن هناك فارق بين أن يستردها الله سبحانه وقد وظّفها الإنسان في سبل الخير بذلاً وعطاءً ونصرة لدعو الحق الذتي جاء بها كل الأنبياء، وبين أن يستردها وقد بخل بها صاحبها عن كل خير، فيحاسب على كسبها ومنعها.

من هنا توقظ سورة الحديد الهمة في القلوب لتتحرك للبذل بشتى أنواعه بالوقت بالجهد بالصحة بطعام بموهبة...وهي أعمال تنير للإنسان قلبه وحياته وآخرته.

ثـم تأتي الآيـات لتستنفر الهمم أكثر وتدفـع بالإنسان إلى المبـادرة للبـذل والعطـاء وعـدم تسويف الخـير، فالمبـادر بالخير السابق به لا يستوي عند الله في ميزانِ الجزاء مع غيره ممن تأخر عنه في العطاء: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ).

وعلـى الرغم من أن لهذه الآيات أسباب نـزول تتعلق بمن أنفق مـن الصحابة رضوان الله عليهم قبل الفتح وقـت أن كان الإسلام لم يـزل غضّاً طرياً في مكة، فإن العـبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبـب. فالذين أنفقـوا وبذلوا وقدّموا من أموالهـم وأنفسهم قبل الفتح ليس كمن أنفق فيما بعده، وفي كل خير.

مـن هنـا فإن مـن أقبل على الله عـز وجل وهو في كامـل قوته ليس كمن أقبل عليه في حال الشدة والمرض والعجز والضعف، وعلى الإنسان اغتنام الفرص وعدم الوقوع في آفة التسويف: (وَاللَّه بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

ثـم إن مدار الإنفاق ليس هو الكمّ بل هو الكيف والنوع، وإحضار القلب والنية والصدق مع الله في الرغبة بالعطاء. الأمر الذي يفتح كل أبواب العطاء أمام الإنسان قلّ أو كثر.

ثـم تواصل الآيات لتنزع من الأنفس شحها وتجعل العطاء قرضا بـين العبد وربه، الجزاء فيـه يضاعف أضعافـا مضاعفة: (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّه قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ).

كل إحسان ومعروف وصدقة يقدم الإنسان بيديه في الدنيا، سيجزى به نورا وخيرا في دنياه وآخرته. من هنا جاء الحديث عن النور مباشرة في الآيات التي تلي الحديث عن الإنفاق:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

العمل من بذل وإنفاق وعطاء وخير ..،وكل ما يقدمه الإنسان، يجازيه به الرحمن بنور وهداية وبشارة: (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وفي المقابل تنتقل السورة إلى صورة مختلفة تماما عن أولئك المؤمنين. إنها صورة المنافق الذي وصلت به قسوة القلب والغفلة إلى حد الوقوع في النفاق.

النفاق الذي يجعل من الإيمان مسألة شكلية ظاهرية لا رصيد لها في القلب والسلوك وواقع الإنسان. وتأتي الآيات بموقفهم يوم القيامة، وهم يبحثون عن النور ويستجدون من المؤمنين شيئا من نور: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

لقد شارك المنافقون في الظاهر المؤمنين في العديد من الأعمال الصالحة وتخلفوا عنهم بالإيمان الذي في قلوبهم والنية والصدق مع اللّه سبحانه. كانوا مع المؤمنين بأجسادهم ولكن قلوبهم لم توافق ظواهرهم حيث يفتنون أنفسهم و يتربصون و يرتابون و تغرهم الأماني و يغرهم باللّه الغرور. وهذا التناقض والنفاق من أعظم أمراض القلوب، ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى: «يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم». الشعراء:٨٩.

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ) إنتهى الوقت!

فالمؤمن العاقل الحكيم يدرك تماماً أن ما يبذله في الدنيا من من وقت من صحة من عمل من مال، إنما هو يفتدي نفسه به قبل فوات الأوان.

ولذا جاءت الآية التي تليها هذه الآية العظيمة (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

عتاب مُحبَّب من خالق رءوف رحيم يعاتب عباده، ببعدهم عنه، وهو سبحانه غني عنهم وهم فقراء إليه. جاء في صحيح مسلم عن

عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعُ سنين". وعند القرطبي: يقول عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن" هذا القول يفيد بأن الآية نزلت في المدينة،وسواء أكانت الآية قد نزلت في مكة أو نزلت في المدينة، فإنها تخاطب المؤمنين في كل وقت وفي كل زمان.

وجاء تحذير المولى جلّ وعلا وتهديده للقاسية قلوبهم حيث قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر : ٢٢. ولذا قال مالك بن دينار : ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

والآية تدفع بالإنسان إلى محاسبة نفسه وحضور قلبه وخشوعه حال سماعه آيات الله. والخشوع هنا خشوع إذعان وتسليم وانقياد لأوامر الله وآياته في واقع الحياة. فالخشوع ليس مجرد شعور قلبي ولكن يبدأ بالقلب ليغير ويعدّل من سلوك الإنسان وأخلاقياته في واقع حياته.

ولذا جاء التحذير من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب: (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ

قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) الذين حوّلوا آيات الكتاب لمجرد آيات تُتلى، لم يذهبوا إلى تطبيقها في واقع الحياة فكانت النتيجة قسوة القلوب.

كل من يبتعد عن تنفيذ أحكام وأوامر آيات الكتاب العظيم آيات القرآن في واقع الحياة ويحوّل القرآن لمجرد آيات تُتلى وتُقرأ ويحوّل الذكر والتسبيح إلى مجرد تمتمة باللسان دون تنفيذ في الواقع، دون تغيير في السلوك، دون تطبيق لدعوة الأنبياء من إحقاق الحق وإزهاق الباطل، يُعاقب بقسوة القلوب.

إلا أن من رحمته سبحانه أنه لم يترك الباب مغلقاً أمام الذين استبدت القسوة بقلوبهم، فها هي الآية تذكرهم برأفته ورحمته بعباده سبحانه: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

مهما بلغت القسوة بقلب الإنسان وابتعد عن الله سبحانه، عليه ألا ييأس من رحمته ولا يصاب بالقنوط، فالرب القادر على إحياء الأرض بعد موتها، قادر على إحياء قلوب البشر بعد غفلتها وقسوتها وموتها بالبعد عن الله وذكره. لكن على الإنسان العودة وطرق باب التوبة والندم بصدق وعزم على تفريطه في جنب الله، فما أكرمه من رب! وما أرحمه من رب سبحانه وتعالى.

ثـم تأتي الآيات مرة آخرى إلى الحث علـى البذل والعطاء: (إِنَّ الْمُصَّدِّقِـينَ وَالْمُصَّدِّقَـاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًـا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

ولنـا أن نتساءل عن المقصد من الحديـث المتواصل عن الإنفاق والصدقة وعلاقة ذلك بمرض قسوة القلب!.

لا يمكن أن يخرج القلب من قسوته دون بذل أو عطاء لأن القسوة عقوبـة مـن الله عز وجـل يسلطها علـى القلوب الشحيحـة التي لا تعرف للعطاء درباً ولا معنى. القلوب التي تبخل وتضن حتى بالكلمة الطيبة حتى بالتبسـم في وجه الآخرين، أو بدعوة صادقة ورغبة في الخير وتمنيه للآخرين.

كما أن الإيمان والحق لا يُنصر بالقلوب الشحيحة، بل لابد للقلب أن يتعلم العطاء ويتمرن على البذل ويمارسه بصدق حتى يصل إلى مرحلة بذل كل شيء لله سبحانه: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ).

فالوصول إلى منزلة الصديقية العظيمة لابد له من بذل وعطاء وفعـل يصدّق الإيمان والخشوع الذي فاض بـه قلب المؤمن. فدعوة الأنبيـاء قامت على الصـدق والعدل والحق، والتطابـق بين أعمال القلوب والجوارح في الواقع.

ثم تأتي الآية التي تليها لتقف بالإنسان عند أسباب الشح المؤدية إلى قسوة القلوب، حب الدنيا والركون إليها: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

الدنيا فانية زائلة، ومتاعها قليل، مثل النبات يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً حتى ينتهى، والآخرة هي الباقية وهي دار القرار.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا". فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قلة نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال صلى الله عليه وسلم: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّه فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ". فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ الله، وما الْوَهْنُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" رواه أبو داود.

من هنا جاء الحث على السباق إلى الآخرة بقوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

السباق الحقيقي هو التسابق إلى الخيرات وبذل المعروف والعطاء وإحقاق دعوة الأنبياء الداعية إلى الحق والعدل، والتكالب على الدنيا يكبل الإنسان ويقعد به عن السير نحو مضمار السباق الآخروي. فالعمر محدود والأجل محتوم والفرصة يسيرة محدودة وهي قصيرة وإن طالت أيامها.

وتنتقل الآيات لتنبه الإنسان إلى ضرورة اللحاق بركب المتسابقين وألا تعيق حركته وسيره المصائب والمحن التي يمر بها في الحياة: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

أفراح الدنيا وأتراحها لا ينبغي أن تستغرق اهتمام الإنسان و تشغله عن سيره نحو الآخرة. فالفرح الشديد بإقبال الدنيا على الإنسان محض امتحان وابتلاء قد يقوده نحو الإختيال والفخر والإغترار كما أن الحزن والاسى الشديد على مافات ووقع من أمور، يعيق حركته والقيام بدوره على الأرض.

وكلا التوجهين يقود إلى البخل وزيادة الحرص والتكالب على الدنيا ولذلك جاءت الآية التي تليها: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ). فالذي يرى

أن ما أنعم الله به عليه وما فتح عليه من أموال الدنيا إنما جاء من لدن نفسه، يندفع نحو الاختيال والغرور والبخل والنكوص عن دعوة الأنبياء القائمة على العدل والحق.

وفي المقابل هناك حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان في خضم الانشغال بالدنيا، مهمة الإنسان ودوره في الأرض التي جاءت بتحديدها دعوة الرسل والأنبياء: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

مهمة الإنسان وفق دعوة الأنبياء تتمثل في إقامة العدل وتحقيق الحق (ليقوم الناس بالقسط). ولا يمكن أن تُحقق الدعوة في واقع الحياة إلا بقوة معنوية ومادية. القوة المعنوية هي التي تحملها القلوب العائدة إلى ربها عز وجل المسبِّحة لخالقها سبحانه وتعالى، والقوة

المادية هي التي جاء ذكرها في قوله عز وجل (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ).

ثم ختمت الآيات (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) لتذكر المؤمنين بمعنى الاختبار والابتلاء في مواقفها ونصرتها للحق. فالله سبحانه وتعالى يحثهم في الآية على نصرة ما دعا إليه ورسله والله قوي عزيز. وفي المقابل فهناك دائما من يختار طريقا غير الحق (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون).

وتوضح الآيات في ترابط فريد أن تحقيق دعوة الأنبياء ونصرتها لا يحدث من خلال العزلة عن المجتمع في صومعة والانقطاع عنه وإنما تنتصر بمكابدة أحوال الناس والمجتمع وتصحيح الخطأ، ولذا جاء النهي عن هذا المنحى الانعزالي في سياق الآيات: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

إلا أن الله سبحانه الرؤوف الرحيم الذي يكافئ بالإحسان إحساناً ما منع هؤلاء من أهل الكتاب من الرهبان من أن يوفيهم حقوقهم ولذا قال: (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

ثم تعود الآيات عوداً من جديد على بدء للحث على البذل ومواصلة العطاء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

إنها دعوة لأن تصبح الحياة بكل ما فيها تصديقاً لإيمان القلب، حين تصبح الحياة وتصرفات وسلوك المؤمن في واقع الحياة تنفيذاً لأوامر الله، تطبيقاً وتفسيراً لآيات الكتاب العظيم، وحملاً لدعوة الأنبياء والرسل بالعدل والحق.

وحين تتحقق هذه الدعوة في واقع الحياة يشع نورها ويتحول صاحبها إلى إشعاع نور يضيء الطريق أمام الآخرين ببذله للخير وعطائه المتواصل لكل العالم: (ويجعل لكم نورا تمشون به). والعالم اليوم أحوج ما يكون إلى بصيص نور ولن يتحقق ذلك النور إلا بقلوب قد فاضت بنور الإيمان ودعوة الحق والعدل.

سورة الحديد بآياتها العظيمة وبكل ما جاء فيها من عِبَر ومن مواعظ تأخذ بالقلوب إلى الطريق الصحيح، وتعيدها إلى خالقها لتحيي فيها من جديد ما قد غاب بالغفلة والبعد والقسوة، فضلا من الله ونعمة.

رقم الناشر الدولي ISBN

رقم الايداع وادارة المكتبات